

(٢) خطبته ﷺ في أول جمعة

صلاها بالمدينة

قال ابن جرير : حدثني يونس بن عبد الأعلى : أخبر ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو ابن عوف رضى الله عنهم :

« الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأستهديه وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فئرة من الرسل^(١) وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى^(٢)،

(١) فترة. بفتح فسكون. أى : على انقطاع بعثهم .

(٢) الذكرى : الموعظة والتذكير .

وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذكراً في عاجل أمره وذكراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم .. وما كان من سوى ذلك : يود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴿وَيَحذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١) والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول تعالى : ﴿ مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(٢) واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية ، فإنه ﴿... من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾^(٣) ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله ثوقى مفته وثوقى عقوبته وثوقى سخطه^(٤) وإن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة . خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله^(٥) ، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله : ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده^(٦) هو اجتباكم

(١) سورة آل عمران : ٣٠ . (٢) سورة ق : ٢٩ .

(٣) سورة الطلاق : ٥ .

(٤) وقاه . بالتشديد . صانه ، والسخط . بفتحين ، ويفتح فسكون . ضد الرضا .

(٥) أى : فى أمره وحده الذى حده لكم .

(٦) حق الجهاد هو الإخلاص فى النية والعمل ، وقال ابن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى .

وَسَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ ، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١) وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَأَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَإِنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ وَلَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(قال ابن كثير في البداية (ج ٣ ص ٢١٣) : هكذا أوردها ابن جرير ، وفي السند إرسال . ووردت في تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٥ ، والقرطبي في تفسيره ج ١٨ ص ٩٨) .

في هذه الخطبة الجامعة - كما قرأنا - نلاحظ أن النبي ﷺ ركز بصورة واضحة : على الترغيب في تقوى الله تبارك وتعالى ، وذلك لأن التقوى - كما جاء في نص وصية محمدية^(٢) - هي رأس الأمر كله ، هذا بالإضافة إلى أن التقوى - كما جاء في نص الخطبة - تُوقِي مَقْتَ اللَّهِ وَعَقُوبَتَهُ وَسَخَطَهُ ، وَتَبَيِّضُ الْوَجْهَ وَتُرْضِي الرَّبَّ ، وَتَرْفَعُ الدَّرَجَةَ : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ، كما يرغب النبي ﷺ في نهاية هذه الخطبة : في ذكر الله والعمل لما بعد الموت ، وذلك لأن ذكر الله تعالى هو طب القلوب ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفائها ، ونور الأبصار وضيائها ، به تطمئن القلوب ، وتنفرج الكروب ، وتغفر الخطايا

(١) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٢) رواها ابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

والذنوب . وأما عن العمل الصالح لما بعد الموت : فهو السبيل إلى
النجاة والنور :

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (١) ، ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا
وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (٢) ، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

** فلنذكر جميعاً كل هذا ، ولنغتنم كل لحظة في حياتنا ، فقد ورد
في الحديث الشريف :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَسَتَكُونُ فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ ،
يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ؛
يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » .
(رواه مسلم)

* وعن عدى بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » . .

(متفق عليه)

(٢) سورة الانفطار : ١٩ .

(١) سورة النبأ : ٤٠ .

(٣) سورة المطففين : ٦ .